مجالات الإصلاح في فلسفته:

نود أن نشير إلى أن مالك بن نبي اهتم بمجالات عدة، في فلسفته الإصلاحية، فهو يحاول أن يرسم الطريق للتخلص من التبعية للاستعمار، وأن تكون لنا شخصيتنا العربية والإسلامية المميزة، وكان عليه تبعة كبرى، ومهام جسام، لذلك نرى مفكرنا يحاول أن ينفذ إلى عمق المشكلات لكي يسبر غورها، وسوف نعرض لهذه المجالات.

1. المجال الحضاري:

عرض مالك لمشكلاتنا عنوان مشكلات الحضارة ففي داخل هذا الإطار تتمحور معظم القضايا والمشكلات، وكما قلنا بصدد عرضنا للمقومات الأساسية والمنهجية لفلسفته إنه غالبًا ما يبدأ بالتقويم والنقد ثم يتلو ذلك بالآراء البنائية والإيجابية.

من أجل هذا ينعي مفكرنا مالك بن نبي ما آل إليه حالنا، حيث إننا أصبحنا مستهلكين للتكنولوجيا لا منتجين لها، وهكذا في رأيه من الأمور الخطيرة في الصراع الحضاري فهو يرى «أن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، وقد تنتهي هذه العملية ضمنًا إلى أن نحصل على نتيجة ما بمقتضى ما يسمى بقانون الأعداد الكبيرة، أعني قانون الصدفة، فكوم ضخم من المنتجات المتزايدة، دائمًا يمكن أن يحقق على طول الزمن، وبدون قصد (حالة حضارة)، ولكننا نرى فرقًا شاسعًا بين هذه الحالة الحضارية، وبين تجربة مخططة كتلك التي ارتسمتها روسيا منذ أربعين عامًا والصين منذ عشر سنوات، هذه التجربة

تبرهـن على أن الواقـع الاجتماعي خاضع لنهج فني معـين، تطبق فيه (قوانين الكيمياء الحيوية) و(الديناميكية الخاصة) سواء في تكوينه أم في تطوره.[1]

بعـد هـذه الرؤية النقدية يقـدم مفكرنا مالك الرؤيـة الإيجابية البنائية لمفهـوم الحضارة الحقيقي، فالأمر لم يعد مجرد اسـتهلاك بقـدر ما هو إبداع وابتـكار ولن يتـم ذلك إلا في إطار هـذه العلاقة الجدلية بـين الثلاثة أعمدة الرئيسية - في رأيه- وهي:

حضارة = إنسان + تراب + وقت[2]

وفي هـذه العوامـل ينحـصر رأس مال الأمـة الاجتماعي الـذي يمدها في خطوتها الأولى في التاريخ.[3]

ويذهب مالك إلى أن العالم الإسـلامي قد اكتنفه الأوبئة وبات السوس ينخر في كيانه، تخلف عن الركب الحضاري: لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريـخ دهـرًا طويلًا، كأن لم يكـن له هدف، استسـلم المريض للمرض، وفقد شـعوره بالألم حتى كأنه يؤلف جزءًا من كيانه وقبل ميلاد هذا القرن سـمع من يذكره بمرضه، ومن يحدثـه عن العناية الإلهية، التي اسـتقرت على وسـادته، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم، وبهذه الصحوة الخافتة تبدأ بالنسـبة للعالم الإسـلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها النهضة.[4]

(1) مالك: شروط النهضة، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ص44.
(2) نفس المرجع: ص 45.
(3) نفس المرجع: ص 50.
(4) نفس المرجع: ص 40.

2. المجال السياسي:

احتلت الأفكار السياسية مكانًا مهمًّا في فكر مالك، وهو في هذا الصدد، يود أن يبعث الروح والهمم في نفس الأمة، فلم يكن يهدف من وراء كتاباته السياسية التنظير، بقدر ما كان يهدف التغيير والفاعلية في الواقع السياسي.

و يرى مالك أن الإصلاح السياسي، يبدأ من تغيير الإنسان والمجموع وليس الهدف مجرد تغيير الحكومات أو على حد تعبيره، فالحكومة مهما كانت ما هي إلا آلة اجتماعية تتغير تبعًا للوسط الذي تعيش فيه وتتنوع معه، فإذا كان الوسط نظيفًا حرًا، فما تستطيع الحكومة أن تواجه بما ليس فيه، و إذا كان الوسط متسمًا بالقابلية للاستعمار، فلابد أن تكون حكومته استعمارية.

هذه الملاحظة تدعونا لأن نقرر أن الاستعمار ليس عبث السياسيين، ولا من أفعالهم بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار، والتي تمكن له في أرضها.[1]

إن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية، ونحن مازلنا نسير ورؤوسنا في الأرض وأرجلنا في الهواء وهذا القلب للأوضاع هو المظهر الجديد لمشكلة نهضتنا.[2]

يشخص مالك العلاقة بين السياسة والاستعمار من جهة ونهضة الأمة و إصلاحها السياسي من جهة أخرى، في طرح جديد لا تحكمه العواطف

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر بسورية، 1986م، ص 31.
(2) المرجع نفسه: ص 36.

السطحية، بقدر ما هو يحاول أن ينفذ إلى أعمق أعماق المشكلات ويحاول أن يسبر غورها ويضع يده على الداء محاولًا تشخيص الدواء، بقدرة وعقلية فذة، تنم عن عقل ينفذ إلى الجوهر عابرًا القشور إلى اللباب ولعل تلك سمة الفلسفة والتفلسف التي اتسم بها مفكرنا.

ويعزو مالك إلى جمال الدين الأفغاني، الدور الكبير في جهوده الرائدة في سبيل إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي[1] وإن كان لابن نبي العديد من المآخذ على جمال الدين منها: أنه قصد إصلاح القوانين دون الاهتمام بإصلاح الإنسان[2] ورغم هذه الانتقادات الحادة أحيانًا إلا أنه لا ينكر دور المصلح الكبير الشيخ محمد عبده، بل هو يعتقد: أن جزءًا كبيرًا مما حققه العالم الإسلامي، وما قدره راجع إلى مجهود الشيخ محمد عبده ومدرسته، وأما ما بقي بعد ذلك فهو راجع إلى تيار المدينة الحديثة.

ويعود مفكرنا إلى الأصالة، وإلى أفكار السلف حول الفكر السياسي، ومدى ارتباط الأخلاق والقيم السامية بالنهج السياسي، ولعل هذا الرأي يعود كما قلت إلى مرجعية المفكر الإسلامي فهو يقول: لقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يحاسب نفسه دائمًا، وكان يبكي من ذنوبه رجاء أن يغفرها الله له، ولكن العالم الإسلامي قد فقد هذه الروح منذ بعيد، فلم يعد أحد يؤنب نفسه أو يتأثر من خطيئته أو يبكي على ذنوبه. وهؤلاء هم القادة والموجهون وقد خيم عليهم شعور بالطمأنينة الأخلاقية، فلم نعد نرى زعيمًا يعترف على الملأ بأخطائه.[3]

(1) مالك بن نبي: واجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، 1985م، ص 45.
(2) نفس المرجع: ص 45.
(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 77.

هكـذا يضـع مفكرنا مالك يده، عـلى بيت الداء، و يأسى عـلى غيبة المثل الأعلى الإسـلامي، مثلما وجدنا المثل والقدوة في شـخص سـيدنا عمر وغيره مـن الأعـلام في فكرنا الإسـلامي، و يـرى مالـك أن غيبة القـدوة أس الداء والبلاء، بل يعتقد أنه: هكذا غرق المثل الأعلى الإسلامي، المثل الأعلى للحياة وللحركـة في فيضان من التعالي والغـرور، بل في ذلك التنوع الذي يتصف به رجل الديـن، حين يعتقد أنه بتأدية الصلوات الخمـس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سـلوكه و إصلاح نفسـه، فهو كامل كـمال العقم، أو كمال الموت والعدم، وبذلـك تختل حركة التقدم النفسي في الفرد والمجتمع، فـإذا بالذين اطمأنـوا لفقرهم الروحي ولنقصهم العصبـي يصبحون قدوة في الخلق، في مجتمع تقود الحقيقة فيه إلى العدم.[1]

إن هنـاك حركة ينبغي ألا تغيـب عن نواظرنا، و إلا غابـت عنا جواهر الأشـياء، فلم نـر منها غـير الظواهر، هذه الحركـة لا تبدأ بالاسـتعمار، بل بالقابلية له، فهي التي تدعوه.[2]

إن مقاومـة الاسـتعمار تكـون أولا بمحاولة تحقيق الانتصـار في الصراع الفكري، بحيث إذا تم ذلك يكون الأمر الطبيعي أن ينتج عن ذلك الانتصار السياسي والاقتصادي في كافة المجالات.[3]

و يرى مالك في فلسـفته السياسـية، ورؤيته الإصلاحية، بأن الاسـتعمار

(1) نفس المرجع: ص 78.
(2) مالك بن نبي: نفس المرجع، ص 84، انظر أيضًا بين الرشاد والتيه، ص 174.
(3) د. أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرًا إصلاحيًّا، الناشر دار النفائس بيروت، 1986م، ص 141.

لا يتصرف في الأمور بطريقة عفوية، بل بايديولوجيا مخططة واستراتيجية محكمة حتى يحول بين الفكر والعمل، إن الاستعمار يحاول أن يضرب كل قوة مناهضة له، تحت أية راية اجتمعت.[1]

فالاستعمار يدبر مكائده عن معرفة تامة بالنفسية المسلمة، فهو يعرف النقص الذي يمنع عقولنا من أن يضع الوقائع الارتباط اللازم الذي يجعلنا نضعها تحت قاعدة ونستخلص منها حقيقة عامة.[2]

هكذا بدهاء شديد يعيش الاستعمار في أعماقنا، بل حدا الأمر بمفكرنا أن يعتقد أن الاستعمار يجعل منا أبواقًا يتحدث فيها وأقلامًا يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه، والحق أننا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية كما درسونا، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية وحتى الدينية من حيث نشعر أولا نشعر.[3]

ويوضح مالك موقف الإسلام من السياسة على مستوى الحاكم والمحكوم فيرى: أن الشريعة الإسلامية قد جسدت الفلسفة السياسية في العلاقة المتبادلة بين المحكوم والحاكم. فعلى المواطن السمع والطاعة ولكنه في نفس الوقت الذي يلحق تجاوزا من رجل السلطة لأحكام الشريعة يرفض السمع والطاعة. فالعلاقة المتبادلة تصبح مقطوعة.[4]

(1) انظر مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 29.
(2) نفس المرجع: ص 53.
(3) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 155.
(4) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، دار الفكر، ص 133.

ويوضح مالك صفات الحاكم، فهو ليس ذلك الرجل النزيه وحسب، بل يجب إضافة صفة غاية في الأهمية ألا وهي الكفاءة وأكثر من ذلك الملاءمة.

فأبو ذر الغفاري وهو من أكثر وجوه عصر النبي ﷺ سموًا: سأل يومًا أن يعين حاكم إمارة لكن الرسول ﷺ رفض طلبه رغم ما كان يكنه للصحابي الجليل من تقدير عميق حتى آخر يوم من حياته، فالنزاهة وحدها لا تكفي.[1]

إن النزاهة والكفاءة صفتان مطلوبتان في رجل السلطة مهما كانت مرتبته.[2]

هكذا يدعونا مالك أن نتواصل بين القديم والحديث، أو الموروث والجديد، أو الأصالة والمعاصرة، فيقول: وإلى هذه القدوة الثانية ينبغي أن نقارن تنظيماتنا وأفكارنا السياسية الحالية في العالم الإسلامي المعاصر لنقيه تخلفنا عن هذا النموذج.[3]

وإننا لبعيدون عنه في منهجي السياسة الإسلامية الحالية اللذين يوجدان في البلاد المتخلفة، فالنهج الذي يسمى (محافظ)، أو النهج الذي يسمى (تقدمي)، لا يوجد فيها إلا الاهتمام بكسب ثقة الجماهير التي تحكمها باعتباره اهتمامًا رئيسيًّا.

(1) مالك: مشكلة الأفكار ، ص 133، انظر أيضًا نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب لشرح الشيخ محمد عبده، الناشر دار المعرفة، ص 51.
(2) نفس المرجع: ص 134.
(3) نفس المرجع: نفس الصفحة.

وفيما عدا واحد ضرب لبلاده المثل الأعلى في الديمقراطية والتواضع السياسي الرائع، حين تنحى عن طيب خاطر، وتخلى عن مسئولياته رئيسا للدولة، لم يعرف العالم الإسلامي اليوم في حياته السياسية (كتصرف ديجول) عقب الاستفتاء الذي لم يعطه أغلبية الأصوات عام 1986م. فالسياسية لا بد لها أن تكون: **أخلاقية، جمالية، علمية، لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ.**[1]

بهذا النهج، يضع مفكرنا مالك الأطر والمحددات لرؤيته الإصلاحية في المجال السياسي.

3. المجال الاجتماعي:

أحد المحاور الرئيسية، في فلسفته، فهو يعتقد أن الخلل الاجتماعي يتبعه بطبيعة الحال الخلل في الجوانب الأخرى.

وفلسفة مفكرنا مالك الاجتماعية، فلسفة حركية أو على حد تعبير أحد الدارسين، أن الأفكار النظرية لم تكن هي موضع اهتمامه.

ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، كانت عنده بحثًا في الحركة والتفاعل واستقصاء الانعكاسات والمعطيات.[2]

إذن يدشن مفكرنا، رؤيته الإصلاحية للتغيير للواقع الاجتماعي في مؤلفات عديدة، فهو يرى: أن روح الإنسان هي التي خلقت من عناصر

(1) المصدر نفسه: ص 135.

(2) انظر: مقال علي القرشي: التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي، مجلة الأمة، العدد 69، ص 28.

متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي. إن قوة التماسك الضرورية للمجتمع موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أي إسلام؟، الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي.[1]

نقول، فرق، وفرق كبير، أن يكون الإسلام، ممثلًا في صورة نظرية فقط، وبين أن يتحول إلى واقع سلوكي أو على حد تعبيره الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا!

وينقد مالك البون الشاسع في مجتمعاتنا الإسلامية، بين منطق القول والعمل، فإن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي، ونظرة إلى واقعنا لترى الرجل الأوروبي والرجل المسلم: أيهما ذو نشاط وعزم وحركة ذائبة. ليس هو الرجل المسلم بكل أسف، الذي يأمره القرآن كما يعرف ذلك تمامًا - بقوله تعالى:

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ [لقمان: 18].

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ ﴾ [الإسراء: 37].

إن هذه الرؤية النقدية، من مفكرنا رؤية رجل عاش في كنف الحضارة الغربية (فرنسا) وخبرها عن قرب، وعاش في مجتمعه الإسلامي، والتحم به وهو يحاول أن يقدم لنا رؤية تحليلية للخلل الاجتماعي في العالم الإسلامي.

ويذهب مالك إلى نقد آخر لهذه الصورة السلبية التي رآها في مجتمعه الجزائري. وهكذا كان شأن الجزائر - فإنها كانت حتى عام 1925م - على

(1) مالك: شروط النهضة، ص 90.

الرغم من إسلامها - تدين بالوثنية - التي قامت نصبها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات ولاقتناء الحروزات الخوارق.. غير أنه ما إن سطع نور الفكرة الإصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد.[1]

ويحلل مالك بثاقب فكره، وحدسه الأصيل هذه المفارقة الغريبة، وهذا التفسخ والانفصام في شخصية المسلم فيقول: وكثيرًا ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائبًا في دموعه، بل قد نرى الإمام نفسه، وقد خنقته شهقاته وانفعالاته. ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته، بقيت (الحقيقة) التي زلزلت كيانه في المسجد، ولم تتبعه في الشارع، فالمسلم حين يتخطى عتبة المسجد ينتقل إذن من حال إلى حال آخر.

وهذا يضطرنا أن نسجل ملاحظتنا: إن هناك انفصالًا بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، هناك فرق بين المبدأ والحياة.[2]

وتتمحور فلسفة مالك الاجتماعية، حول هذه العلاقة الجدلية التي طرحها في العديد من مؤلفاته، عالم الأفكار، عالم الأشياء، وعالم الأشخاص كمنظومة واحدة تتفاعل فيما بينها.

فالعلاقة الفاسدة في (عالم الأشخاص) لها نتائجها السريعة في (عالم الأفكار) وفي عالم الأشياء. والسقوط الاجتماعي الذي يصيب (عالم الأشخاص) يمتد لا محالة إلى الأفكار في صورة افتقار وفاقة.[3]

ففاعلية (الأفكار) تخضع إذن لشبكة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن

(1) نفس المرجع: ص 28.
(2) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 105.
(3) نفس المرجع: ص 45.

نتصور عملًا متجانسًا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان فعالًا مؤثرًا.[1]

إن شبكة العلاقات تتأثر تأثرًا كبيرًا عندما تصاب ذوات الأفراد بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبًا أو مستحيلًا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول المشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين[2]. مثل فقهاء عصر الانحطاط، حيث لم يعودوا يكبون على المشكلات التي يثيرها المجتمع، بل على حالات خيالية محضة كالبحث في جنس الملائكة.[3]

إن العوالم الثلاثة في علاقة تفاعلية مع بعضها البعض، فالأفكار الناجحة هي التي يضعها الكاتب بتوجيه من واقع القارئ المعاش، ومن تطلعاته، وهي التي تراعي الواقع المادي وطبيعة الواقع الذي تنظر له، والأشخاص الناجحون، هم الذين يحسنون استيعاب الأفكار وفهم واقعهم فيستطيعون تحديد الأهداف بما يتناسب مع الظروف ومع القدرات البشرية والمادية المتوفرة. فمن تفاعل الفكر مع الواقع الاجتماعي والطبيعي، ومن تفاعل مجموع الشعوب مع الطبيعة والأفكار السائدة، تنتج معادلة جديدة، هي المؤثر على نجاح عملية التحضير، هذه المعادلة هي المقياس لتوافق الأفكار والأشخاص والأشياء، إنها معادلة العلاقات الاجتماعية، أو الصيغة الجديدة للمجتمع التي كانت عشرة الانسجام بين العوالم الثلاثة، لأن النجاح من هذه الشبكة للعلاقات الاجتماعية دليل على السير في صنع الحضارة.[4]

(1) نفس المرجع: ص 28.
(2) نفس المرجع: ص 43.
(3) نفس المرجع: ص 46.
(4) د. أسعد السحمراني: المرجع السابق ص 146.

إذن فاعليـة الفكـرة رهن بشروط نفسـية واجتماعية تتنـوع بتنوع الزمـان والمكان ومن أمثلة ذلك أن تراث ابـن خلدون قد ظهر في العالم الإسـلامي وهـو مع ذلك لم يسـهم في تقدمه العقـلي أو الاجتماعي، لأن هـذا التراث في ذلك العـصر كان يمثل فكرة لا صلة لها إطلاقًا بالوسـط الاجتماعي.[1]

ويوضـح مالك فلسـفته الاجتماعيـة داخـل منظومتـه الفكرية التي سطرها (عالم الأفكار + عالم الأشياء + عالم الأشخاص) بالعودة إلى العهد النبوي بقوله: ولقد حدد النبي ﷺ هذه العلاقة في صورة أخاذة تخلع على الأفكار وعلى الأشـياء قيمتهـا العقلية وفاعليتها حين قـال: «مثل ما بعثني الله عَزَّوَجَلَّ به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكانت منها بقعة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشـب الكثـير؛ وكانت منها بقعة أمسـكت الماء، فنفع الله عَزَّوَجَلَّ بها الناس، فشربوا منها وسـقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ» (متفق عليه)»، ففي هذا النص تدرج من الأعلى للأدنى في تصوير علاقة الفرد والمجتمع بالعلم أي بالأفكار والأشياء.

وكان النبي ﷺ أراد مـن هذا التدرج ذي الدرجات الثلاث أن يرمز إلى عصور ثلاثة يمر بها المجتمـع، يبدأ تاريخه بمرحلة تحدث فيها تقبل الأفكار و إبداعها وتمثلها، تليهـا مرحلة تبلغ الأفكار إلى مجتمعات أخرى؛ ثم تعقب مرحلة يتجمد فيها عالم الأفكار فيصبح ليست لديه أدنى فاعلية اجتماعية.

فيمكننا القـول: إن المجتمع في عصر الفارابي كان يخلق أفكارًا وأنه على

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 47.

عهد ابن رشد يبلغها إلى أوروبا، وأنه بعد ابن خلدون لم يعد قادرًا لا على الخلق ولا على التبليغ.[1]

هكذا تتمحور فلسفة مالك في التغيير الاجتماعي حول فاعلية منظومته الفكرية (الأفكار والأشياء والأشخاص) في الواقع الاجتماعي وهي فلسفة أخص ما تتميز به فلسفة الحركة لا السكون والانفتاح لا الانغلاق.

4. المجال الثقافي والتربوي:

ليس ثمة شك، أن المجال الثقافي والتربوي من المجالات المهمة في فكر مالك، وهو أن يؤسس عقليه ثقافية، يحكمها منطق العمل فلا جدال أن الجانب الثقافي هو الذي يوحد نسيج الأمة ويجعلها أشبه بالجسم الواحد، ففي رأيه أن العالم الإسلامي اليوم أحوج ما يكون لهذا الجانب في ثقافته لأن ما ينقص العقل العربي، إنما هو العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه، فحياة المسلم اليومية كما يراها مالك يسودها الكثير من الشلل وانعدام الفاعلية في الجانب الخاص أو العام والسبب في ذلك يرجع إلى افتقاده الضابط الذي يربط بين العمل وهدفه بين فكرة وتحقيقها وبين ثقافة ومثلها العليا وفي هذا المعنى نجده بقول: إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلام مجرد.[2]

إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ لا يجب أن يضيع هباء، كما يهرب

(1) مالك: مشكلة الثقافة ص 49.

(2) مالك: مشكلة الثقافة ص 84.

الماء من ساقية خربة. ولا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تمامًا قيمة هذا الأمر، ولكن بأية وسيلة تربوية؟

لكي تعلم «المسلم» علم الزمن، فنعلم الطفل والمرأة والرجل تخصيص نصف ساعة يوميًا لأداء واجب معين، فإذا خصص كل فرد هذا الجزء من يومه في تنفيذ مهمة منتظمة وفعالة فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية.[1]

فمالك بن نبي لا يعالج مفهوم الزمن من الوجهة الفلسفية البحتة أو الزمن السيكولوجي، ولكنه مهموم بعرضه لمفهوم الزمن، وارتباطه بتقدم الأمة، ولا مراء، أن مفكرنا حاول أن يضع نموذجًا تربويًّا لكيفية استثمار الوقت في حياة المسلم، إذ إن حياة الأمم الجادة رهن بكيفية استثمار أفرادها لأوقاتهم لا إهدار الوقت فيما لا يغني ولا يسمن من جوع، وما أصاب العالم الإسلامي من انزواء عن حلبة التاريخ - على حد تعبير مفكرنا مالك- إلا من جراء إهدار الوقت.

ويعود مفكرنا إلى دراسة الثقافة الإسلامية في عصورنا الخوالي ويبين لنا التراث الثقافي الخطير الذي خلفته الحضارة الإسلامية للحضارة الحديثة، ويظل شاهدًا على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية، فلقد اتسم كفاحه في كافة مجالاته بالإحساس «بالقانون» وهو يستلزم القدرة على التركيب فوضعت النظريات القانونية وبناها الفقهاء المسلمون على قواعد (الأصول).

(1) مالك: شروط النهضة ص 141.

وهكـذا نجد التشريع الإسـلامي يحمل للمـرة الأولى في تاريخ التشريع طابع نظام فلسفي يقوم على مبادئ أساسية، بينما لا يعد القانون الروماني أن يكون مجموعة من الملفقات القانونية العفوية، ليس بينهما رابط عقلي.[1]

وعندمـا تنمحي النماذج المثالية. حينئذ لا تسـمع أبدًا لهجة الروح في تناغـم اللحـن. فالأفكار الموضوعـة حين لا يعدو لها جـذور في الغلاف الثقافي الأساسي تصمت هي بدورها: إذ لم تعد لديها ما تعبر عنه، ثم لأنها لم تعد تسـتطيع أن تعبر عن شيء. والمجتمـع الذي يصل إلى هذه الدرجة يتفتـت لأنه لم تعد لديه دوافع مشـتركة، كما هو الشـأن في الجزائر بعد الثـورة، وكما هو الحـال في أوروبا الآن حيث الفرد ينتحر أو ينطوي على ذاته.[2]

هكذا ينعي مالك ما آل إليه عالمنا الإسلامي، من خمود وتخلف عن الركب الثقـافي، والأمر الأدهى - فيما يظن - عندما تبدأ إحياء عالم الثقافة المحشـو بأفكار قاتلة مستوردة من حضارة أخرى.[3]

هذه هي النتيجة الطبيعية لاطراد تحدد في لب المجتمع الإسلامي بجدلية الأشـياء والأشـخاص والأفكار التي صنعت تاريخه. غـير أن الذي لم يكن طبيعيًا هو جمود المجتمع الإسلامي وخموله في هذه المرحلة من التطور. وكأنه يريد أن يبقى فيها أبد الدهر. في حين أن مجتمعات أخرى، كاليابان، والصين بدأت من النقطة نفسها. لكنها نزعت منها ثوب الجمود وهي تفرد على نفسها

(1) مالك: وجهة العالم الإسلامي ص 16.
(2) مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 74.
(3) المرجع السابق: ص 74.

ظروف ديناميكية جديدة ونظرة جدلية تاريخية جديدة فالمجتمع الإسلامي يدفع اليوم جزية خيانته لنماذجه الأساسية.

إذًا ينتهي مفكرنا مالك أن الأزمة الثقافية التي يعيشها العالم الإسلامي لم تكن أزمة في الوسائل، و إنما في الأفكار وما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكًا واضحًا، فيظل داء الشبيبة العربية عضالا بسبب تخلفها عن ركب الحضارة والتقدم.[1]

5. المجال الاقتصادي:

بات واضحًا أن مفكرنا مالك بطرحه مشروعه الفكري، وفلسفته الإصلاحية الشاملة، كان ختامها الرؤية الاقتصادية، ومعالجته لهذا الجانب، لا ينفصل عراها عن بقية الجوانب الأخرى.

يطرح مفكرنا مسلمات رئيسية للنهضة الاقتصادية والتنمية و يتلخص ذلك في الآتي:

1- يجب القوت لكل فم.

2- يجب العمل لكل ساعد.

وعليه فالقضية بالنسبة للبلد الواحد في تشغيل جزء من السواعد كسواعد العمال الجزائريين العائدين من الخارج، بل ينبغي تشغيل السواعد كلها التي تمثل الرصيد الحقيقي للوطن بأجمعه من لحظة الصفر، و بهذا الثمن فقد نستطيع دفع عجلة التنمية في الوطن.[2]

(1) مالك: مشكلة الثقافة ص 117.

(2) مالك بين الرشاد والتيه: ص 163 - 164.

وينعي مالك على أن العالم الثالث كله غداة الانسلاخ من الاستعمار لم يكن عليه أن يتخلص من سلبيته الموروثة وحدها، بل من عواقب ركوده أيضًا ساعة وثبة أوروبا في الميدان الاقتصادي.

ويأمل مفكرنا أن يتخلص العالم الثالث (يقصد الإسلامي) من العقد التي اكتنفته وتعوق طريق التنمية.

وهو بهذا المسلك يؤكد على أنه لن يتم ذلك إلا بالخطط العلمية السليمة و(المدروسة) أو على حد قوله: ينبغي لخطط التنمية والحال هذه أن تعتمد اعتمادًا أكثر على السلطان الاجتماعي.[1]

من أجل هذا نجد مفكرنا حريصًا أشد ما يكون الحرص على الدعوة إلى الأخذ بالاقتصاد التكاملي فهو يرى أن العالم العربي يتمتع بإمكانيات اقتصادية مهملة.. وفي استطاعت العالم العربي أن يعيد للتراب وظيفته الاقتصادية إذا أمكن استعادة العقول العربية المغتربة.[2]

وهكذا يربط مالك بين الفكر الصحيح والنتائج المترتبة عليه في علم الاقتصاد، فإن حركة الأفكار مهما كانت وجهتها، تدفع الفكر لتدعيمها أو لتصحيحها، أو حتى لمقاومتها، وأعتقد أن الفكر الإسلامي مدعو إلى خوض معركة كبرى لتحدي عالم الاقتصاد.[3]

وينظر مالك بقريحته الفكرية إلى حالة العالم الإسلامي، ويرى

(1) مالك: المسلم في علم الاقتصاد، ترجمة عبد الصبور شاهين، الناشر دار الفكر، ص 40.

(2) نفس المرجع: ص 102.

(3) نفس المرجع: ص 106.

أن جوهـر العمليـة الاقتصادية، ليس في توفر المـال وحده بقدر ما هي قضيـة تعبئـة الطاقـات الاجتماعية، أي الإنسـان والـتراب والوقت في مشروع.[1]

ويذهـب مالـك في منهجه الإصلاحي إلى أن الإنسـان هـو أصل العملية التنمويـة، أو عـلى حـد تعبيره: يجـب أن تتضمـن النهضـة الاقتصادية هذا الجانـب التربوي الذي يجعل من الإنسـان القيمـة الاقتصادية الأولى بوصفه وسـيلة تتحقق بهـا خطة التنميـة، ونقطة تلاقي تلتقي عندهـا كل الخطوط الرئيسية في البرامج المعروضة للإنجاز.[2]

تعقيب:

تلك هي أهم مجالات الفلسـفة الإصلاحية عنـد مفكرنا مالك، ما أجلها، وهو يحاول أن يرسـم ملامح فلسـفة إصلاحيـة، تهتم أول مـا تهتم بإصلاح الإنسان صاحب الحضارة والتنمية.

ولا بـد أن نأخذ في الاعتبـار أن هذا الفصل الذي ذهبنـا إليه بين مجالات الإصـلاح، اقتضته الضرورة المنهجيـة وطبيعة طرح المشـكلة، ولكن هذه المجـالات تتداخل فيما بينها تداخلًا متشـابكًا بل ومعقدًا، وفي رأي مالك أن فكرته الإصلاحية كل لا يتجزأ.

ومـا يأخـذ عـلى مفكرنا مالـك أنه غالبًـا ما يذهـب في تحليلـه للظاهرة الحضاريـة بوسـم «الإنسـان العـربي المهـزوم والـذي صاغه عـصر ما بعد

(1) نفس المرجع: ص 75.
(2) المرجع نفسه: ص 75.

الموحدين»[1]، وفي سياق آخر أن الحضارة العربية الإسلامية تمثلت بوضوح في المرحلة التي بدأت من غار حراء إلى صفين وهي المرحلة الرئيسية التي تركت فيها عناصرها الجوهرية، إنما كانت دينية بحتة تسودها الروح.

أو أن هذه الحضارة قد وصلت إلى القمة الروحية هو ما يوافق صفين عام 38هـ.[2]

لقد كان لقول مالك بن نبي بعض المبالغة فيما ذهب إليه آنفًا، وهنا ما ذهب بصدده بعض الدارسين، بقوله: إن هذا القول مبالغ فيه عند مفكرنا مالك بن نبي، وإنه يختلف معه في ذلك لأن صفين تقع في كل التاريخ وكل العصور، نحن لا ننكر أن المسلمين قد دفعوا ثمنًا باهظًا، وأنه كان ثمنًا كبيرًا، ولكننا لا نراه يمثل نشازا في التاريخ، ولا نراه يمثل منعطفًا جديدًا في التاريخ، ولا نرى الروح قد خمرت وانهارت ابدًا.[3]

ويمكننا القول إن فلسفة مالك بن نبي الإصلاحية تتمحور حول جانبين أساسيين:

1- تأسيس البناء على أساس العقيدة الصحيحة.

2- نقد الآراء والمفاهيم السلبية والتي أثرت بدورها في عدم تقدم الحضارة العربية والإسلامية.

وهي فلسفة كما قلنا فلسفة الحركة في مقابل السكون والانفتاح في

(1) انظر على سبيل المثال: وجهة العالم الإسلامي ص 32، 45، مشكلة الأفكار ص 47.
(2) انظر: شروط النهضة ص 52، وجهة العالم الإسلامي ص 25.
(3) انظر: د. سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ص 122.

مقابل الانغلاق. من جانب آخر فهي فلسفة تتسم بالشمول فمفكرنا أثناء عرضه لمعالم فلسفته الإصلاحية كان ينظر إلى كافة القضايا والموضوعات التي تخدم فكرته، زد على ذلك أن ما يعطي هذه الفلسفة الإصلاحية قيمة حضارية، أننا لم ننتهي بعد من طرح الأفكار الإصلاحية التي عرضها مفكرنا مالك مثل فلسفة الإصلاح والنهضة، والفلسفة الاقتصادية وهذه الأفكار هي نفس الأفكار التي تشغلنا اليوم لمواجهة التحديات والكيانات الاقتصادية الكبرى التي تواجه عالمنا العربي والإسلامي.

فإذا كان مفكرنا مالك مهمومًا بمثل هذه القضايا وأنه كان يود تغيير الواقع الاجتماعي بنهجه الحركي والتفاعلي في المجتمع، فما أجدرنا أن نتلمسه ونتأسى به.

وهذا البحث لا يفصل القول حول جزئيات هذه الفلسفة الإصلاحية، فإن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة كاملة ومستوعبة، وحسبه أنه وضع معالم الفلسفة الإصلاحية عند مفكرنا مالك بن نبي.

مراجع الدراسة

مؤلفات مالك:

1- مالـك بن نبي: شروط النهضـة، ترجمة عبد الصبور شـاهين، الناشر دار الفكر دمشق سنة 1986م.

2- مالك بن نبي: مشـكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: د.بسام بركة، الناشر دار الفكر سنة 1988م.

3- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1985م.

4- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شـاهين، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1985م.

5- مالـك بن نبي: مشـكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شـاهين، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1985م.

6- مالك بن نبي: المسلم في علم الاقتصاد، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1987م.

7- مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة: الطيب الشريف، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1990م.

8- مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكرية بدمشق 1981م.

9- مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر بدمشق سنة 1986م.

10- مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر بدمشق سنة 1985م.

11- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الناشر دار الفكر بدمشق سنة 1989م.

12- مالك بن نبي: مذكرات شاهد قرن، دار الفكر بدمشق سنة 1984م.

دراسات:

13- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرًا إصلاحيًا، دار النفائس بيروت سنة 1986م.

14- د. سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت سنة 1993م.

15- زينب أحمد مكارم: المصادر الدينية والفلسفية في موقف مالك بن نبي من الحضارة (رسالة ماجستير) مخطوط بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة 1986م.

16- Grand Larousse: Encyclopedique Tome lll, 1960.

مقالات:

17- مجلة الأمة العدد (69)، مقال التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي لكتابه «عليّ القرشي».